الاستراتيجية الخطابية التضامنية في آيات السيرة النبوية

الباحث : أحمد محمد حسن علي

جامعة السويس – كلية الآداب – قسم اللغة العربية

ملخص البحث

تعد الفوارق الاجتماعية بين الناس هي الركيزة الأساسية في اختيار وسيلة التخاطب بين المتكلم والسامع أو" المرسل, والمرسل إليه", فعندما يريد المرسل أن ينشىءَ حوارا ما فلابد أن يَعِي – أولا– حجم الفوارق الاجتماعية أوالطبقية أوالسلطوية بينه وبين المرسل إليه؛ فإن كان المرسل إليه في طبقته الاجتماعية أو الثقافية أو العمرية أو قريبا منها فإنه يلجأ – مضطرا– إلى طريق واحد للحوار كي يثمر وينجح وهو ما عرف ب " الاستراتيجية الخطابية التضامنية" , وكذلك يختار تلك الوسيلة إذا ما أراد أن يتنازل – مختارا– عن تلك الفوارق الاجتماعية أو العلمية أو السلطوية أو غيرها.

أما فيما يتعلق بالاستراتيجية التضامنية كوسيلة خطابية يتخذها منتج الخطاب لأهداف وأغراض معينة، فهي استراتيجية تهدف في العموم إلى تقريب المسافات بين المرسِل والمتلقي، وقد أطلق على هذه الاستراتيجية مصطلح "التضامنية"، كما وردت لها تسميات أخرى في مؤلفات عديدة ، إذ استعمل الباحثون عددا من المصطلحات للتعبير عن هذه الاستراتيجية مثل: التضامن, والبعد , والبعد الاجتماعي , و التآزر ؛ وذلك للتفاوت في تحديد مفهومها واختلاف طرحهم حولها وتعدد الرؤى بصدد ما يحيط بها وآثارها، بيد أن المفهوم الذي يقصدونه واحد.

الكلمات المفتاحية

الاستراتيجية , الخطابية , التضامنية , آيات السيرة النبوية

Abstract

The social differences between people are the main basis for choosing the means of communication between the speaker and the listener or "the sender and the addressee". If the addressee is in his social, cultural, or age class, or close to it, then he resorts - compelled - to one way of dialogue in order to bear fruit and succeed, which is what is known as the "solidary rhetorical strategy", and he also chooses that method if he wants to give up - voluntarily - on that. Social, scientific, authoritarian, or other differences.

As for the solidarity strategy as a rhetorical means that the speech producer takes for specific goals and purposes, it is a strategy that generally aims to bridge the distances between the sender and the recipient. Terms to express this strategy such as: solidarity, dimension, social dimension, and synergy; This is due to the disparity in defining its concept and the difference in their presentation about it, and the multiplicity of visions regarding what surrounds it and its effects, but the concept they intend is one.

Keywords: Strategy, rhetoric, solidarity, verses of the Prophet's biography

دواعي استخدام المرسِل للاستراتيجية التضامنية.

١ – التخلي عن السلطة.

إن الرغبة في إزالة معالم الفروق بين المرسل والمرسل إليه يترجم في الواقع رغبة المرسل في التنازل عن سلطته؛ إذ يعبر للمرسل إليه أنه في الرتبة نفسها، مما يدعم البعد التضامني ويمهد بقوة لتبليغ المقاصد بنجاح، وذلك لأن حقيقة الكلام باعتباره خطابا تواصليا ينبني على قصدين اثنين:

أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير. وحتى يتحقق القصد الثاني لا بد من انتقاء الاستراتيجية التخاطبية المناسبة من أجل نجاح التوجه إلى الغير، وهي الاستراتيجية التضامنية والتي يحاول صاحب السلطة من خلالها التخلي – مؤقتا – عن سلطته بغية الوصول لهدفه, والسلطة هنا بمفوهما الشامل الأعم تعنى السلطة السياسية أو الاجتماعية أو الدينية أو غير ذلك والنموذج الذي اختاره الباحث من آيات السيرة النبوية قول الله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ**)[١]

في هذه الآية خطاب يحمل العتاب من الله العظيم إلى صحابي جليل وقع في ذنب كبير حيث أفشى أسرار المسلمين الحربية وأطلع العدوعلى عوراتهم المخفية ؛ فبينما النبي – صلى الله عليه وسلم – يستعد لفتح مكة في العام الثامن من الهجرة بسبب أن أهل مكة خانوا العهود والعقود التي أبرموها في صلح الحديبة من العام السادس, فتجهز لهم النبي وأخبر أصحابه بالخطة الحربية, فأرسل حاطب بن أبي بلتعة رسالة إلى أهل مكة يخبرهم بعزم الرسول على غزوهم وتفاصيل الخبر رواه البخاري وغيره.

من المعلوم لكل ذي عقل أن هذ العمل – التجسس – يعد في الدساتير العالمية والقوانين الدولية والشريعة الإسلامية جريمة تستوجب عقابا رادعا يتفاوت بين القتل والسجن

المؤبد والتعزير, ولذلك بادر الفاروق عمر لقتل حاطب بل وسمه بالنفاق وذلك لعلمه المسبق بالحكم على من وقع في هذه الجريمة فما كان لعمر أن يتجرأ على قوله هذا – دعني أضرب عنق هذا المنافق – بين يدي رسول الله إلا لسابق علمه بالحكم ودليلنا على تبرأة عمر ما ورد في السنة حول قتل الجاسوس مطلقا.

يرى الباحث أن المرسل في هذا السياق المكلف بالبلاغ عن الله في هذه الحالة قد تخلى عن سلطته ولم يعاقب حاطبا على خيانته بل استعمل معه أعلى درجات التضامن وإظهار الرحمة به والشفقة عليه؛ وظني أن النبي الكريم وازن بين ما هو متيقن منه من سبقه إلى الإسلام والهجرة والغزو في بدر, وما بدر منه في تلك الواقعة ,أي ما قدمه للإسلام منذ شهد الشهادتين وهاجر في سبيل الله وترك الأهل والمال والولد, وبين هذه الفعلة الشنيعة فاتخذ معه أعلى درجات ضبط النفس فاستدعاه قبل أن يحكم عليه وسأله قبل أن يوقع العقوبة به , ولما كان حاطب من الصادقين نجاه رب العالمين.

حيث كان حاله على عكس المنافقين حيث كان قلبهُ عامرًا بالإيمان مواليا للنبي العدنان ولذا صدَّقه القرآن فلم ينزع عنه صفة الإيمان فناداه بقوله " يا أيها الذين آمنوا " قال القرطبي: (يعني بالظاهر ؛ لأن قلب حاطب كان سليما بدليل أن النبي قال لهم : " أما صاحبكم فصدق " وهذا نص في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده)[٢] ومن هذا المنطلق استخدم النبي ✕ مع حاطب الاستراتيجية الخطابية التضامنية حيث تخلى عن سلطته ولجأ إلى شفقته(ولهذا قبل رسول الله عذر حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد)[٣].

بينما نلمح في كلام النبي عن حاطب إنه استعمل وسيلة تداولية بلاغية أشار إليه اللسانيون بقولهم " ذكر خصائص المرسل إليه " حيث قال رسول الله لعمر : إنه شهد بدرا "

فذلك وسام آخر يضاف إلى شرف السبق للإسلام وشرف الهجرة إلى دار الإيمان (وهذا كله معاتبة لحاطب وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله وصدق إيمانه فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه).[٤]

مما سبق يتضح لنا أن هذا الخطاب القرآني وهذا التصرف النبوي الذي فضل الاستراتيجية التضامنية على غيرها فأبقى على حياة مؤمن يستحق القتل على جريمته والمعاقبة على فعلته عن طريق التخلي عن سلطتة؛ وهذا هو عين الحكمة في إبقاء المودة والمحبة لمن نريد التضامن معهم وقد قال فيه ابن حجر في الإصابة :" كان أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهلية "، وكان له علم بالنصرانية، ومقدرة على المحاورة . مما جعل النبي يرسله سفيرا إلى المقوقس عظيم مصر فبفضل حكمة النبي واستعماله للتضامن معه تحول من مذنب يستحق القتل إلى سفير لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ – الكم التواصلي (تكرار التواصل أوسابق المعرفة).

إن تكرار التواصل بين المرسل والمتلقي يجعل بينهما معرفة وثيقة وعلاقة شخصية، فيعرف كل طرف عن الطرف الآخر مختلف الجوانب الشخصية التي ينشغل بها, كما يعرف تبعا لذلك الموضوعات التي يحب أن يخوض فيها والمسائل التي يريد مناقشتها مثلا، كما يعرف مزاجه وطبيعته وردة فعله تجاه القضايا المختلفة؛ وهذا التعارف يفتح مساحات واسعة لنقاط الالتقاء بين الطرفين، ومثال المبحث قوله تعالى: **(وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ...)**[٥]

ومضمون الخطاب: لما تأخر الوحي أياما عن النبي – صلى الله عليه وسلم – حزن حزنا شديدا حتى أمرضه هذا الحزن ؛ مما أثار المشركين ودعاهم إلى التهكم به والسخرية

منه, فنالت إحدى السفيهات وهي العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان وهي " حمالة الحطب " أم جميل زوج عم النبي أبي لهب – قالت تلك العجوز الشمطاء متهكمة على نبينا وساخرة من رسولنا : يامحمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك . .. فأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ السورة).[٦]

هنا يتنزل جبريل بخطاب قرآني يستخدم التضامن والتآزر مع النبي الكريم مفتتحا بأسلوب بلاغي يفيد التوكيد وهو القسم من الله , لكن المقصود من الخطاب يحتاج لهذا القسم, لذا أقسم لهم بمخلوقاته العظيمة كالضحى والليل الساكن[٧] وهما خلقان من خلق الله لم ينكرهما المشركون يوما.

وجاء جواب القسم ليردَ تلكَ المزاعم, ويفند هذه الشائعات يقول: إن ربك ما تركك وما قلاك ؛ أي ما أبغضك منذ أن أحبك (فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده والنفي المحض لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوت كمال فهذه حال الرسول الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها)[٨] والسياق الإجمالي يدل على أن الله تعالى وعده بوعود في الحاضر مجهولة وأثبتها بدلائل من الماضي معلومة ليطمئن قلبه ومن معه من المؤمنين ويدحض مزاعم المشركين الساخرين ؛ فوعده بأن الآخرة خير له من الأولى وأنه سبحانه سيعطيه حتى يرضيه (ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ولا يضيق صدره ولا يقل صبره)[٩]

هذا الأسلوب الذي اتخذه القرآن في خطاب النبي العدنان عُنوِن له في الدراسات التدولية فيما بعد بقولهم " استعداد المرسل لخدمة الطرف الآخر " فنلحظ أن الأسلوب القرآني أعظم من ذلك بكثير؛ حيث أثبت الاستعداد للوقوف مع النبي بالدليل والبرهان الثابت عند المشركين من حفظه يتيما وهدايته باختصاصه بالوحي ثم الغنى بعد الفقر ؛ فنراه جمع بين

التضامن معه والوقوف إلى جواره في شأن القضية المثارة حاليا " تأخر الوحي "(وحروف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع ... وحذف المفعول الثاني ل " يعطيك " ليعم كل ما يرجوه من خير لنفسه ولأمته فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة... وتعريف " ربك " بالإضافة دون اسم الله العلم لما يؤذن به لفظ رب من الرأفة واللطف , وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإشعار بعنايته برسوله وتشريفيه بإضافة رب إلى ضميره)[١٠] بل ذهب الأسلوب القرآني إلى ابعد من ذلك وهي الدار الآخرة, وبأسلوب آخر تداولي هو " ذكر خصائص المرسل إليه " وكل ذلك من شأنه تفعيل التضامن والتآزر من الله إلى رسوله ومصطفاه. وفيه كذلك أسلوب آخر اسموه تداوليا " تحسين صورة المرسل إليه أمام الآخرين .

٣ – تأسيس علاقة جديدة.

إن لم تكن ثمة علاقة بين المرسل والمرسل إليه وأراد الأول إيجاد تلك العلاقة وتأسيسها فينبغي له أن يلجأ إلى الاستراتيجية التضامنية بأن يحاول لفت انتباه المتلقي , فالإنسان في حاجة إلى إقامة علاقات مع غيره، ربما تقوم لمجرد العلاقة وحسب، أو للحاجة الاجتماعية أو النفسية، فالإنسان يرغب في تحقيق مكانة متميزة له في المجتمع الذي يعيش فيه وهذه المكانة تتحقق بالتمركز الاجتماعي الذي لا يبنى إلا باستخدام الاستراتيجية التضامنية في الخطاب مع الآخرين من خلال إظهار الاهتمام بهم وإقامة العلاقات معهم. ومثال المبحث قوله تعالى: (**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**)[١١]

في هذه الآيات الكريمات تأسيس لعلاقة جديدة بين الإنس والجن أوتحديدا بين رسولنا وبين الجن ؛ وفيها– كذلك – خطاب بين الجن وبعضهم البعض ؛ ذلك لأنه مبعوث للخلق أجمعين .(١٢)

والسؤال: كيف تأسست تلك العلاقة الغريبة بين الإنس والجن ؟

والإجابة؛ أنه في العام العاشر من البعثة النبوية – تقريبا – حيث قرر النبي الكريم في عام الحزن أن يبحث عن أرض جديدة يبذر فيها حبوب دعوته وينشر فيها مبادئ رسالته ؛ فاختار أرض الطائف , فلما دعاهم إلى الله عادوه وطردوه, وأدموا قدمه وضربوه ؛ وبينما هو عائد نزل بمكان يسمى " وادي نخلة " فقام من الليل يقرأ القرآن فساق الله إليه سبعة من الجن (وذلك أنهم خرجوا حين حرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك فجاءوا وادي نخلة والنبي يقرأ في صلاة الفجر وكانوا سبعة فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرين ؛ ولم يعلم بهم النبي)(١٣)

و سيختار الباحث الخطاب الذي دار بين الجن بعضهم البعض, والخطاب بينهم وبين قومهم الكافرين حيث إنه خطاب مميز وعزيز من خطابات القرآن الكريم.

لقد استخدم سفراء الجن أفضل طريقة أو استراتيجية مع قومهم الكافرين وهي الاستراتيجية التضامنية ؛ حيث إنهم كانوا حريصين على هدايتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام وكان من أدبهم أنهم أنصتوا لسماع القرآن الكريم فهداهم الله إلى طريقه المستقيم, فلما قُضي أسرعوا إلى أغلى الخلق عندهم أي أقوامهم وأهليهم مستخدمين وسيلة بلاغية وآلية تداولية بقولهم " يا قومنا " لما فيها من تذكير بخصائص القرابة والرحم واستمالة المرسل إليه بأوجه الشبه وتواشج الغايات وكأنهم يتمثلون برسل الله من البشر فما من نبي إلا وذكره القرآن بقوله " يا قومي " , وفي قولهم{ من بعد موسى } تنبيه بذكر الاسم العلم وهو

وسيلة بلاغية تضامنية؛ وقيل أنهم اختصوا موسى بالذكر لأنهم كانوا يهود يؤمنون به ؛ وقيل أنهم لم يذكروا عيسى عليه السلام لأنه (أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ؛ فالعمدة هو التوراة)[١٤] وكان من أدبهم مع قومهم أن قالوا: { يهدي إلى الحق ...} كأنهم لم يصرحوا بما عليه قومهم من الباطل ومن طريق الكفر المعوج, ثم أعادوا النداء بما يحمل من ألفاظ الود والرحمه والشفقه والتذكير بخصائص القربى وهو كما ذكرنا من الآليات التداولية الحديثة (وإعادتهم نداء قومهم للاهتمام بما بعد النداء وهو " أجيبوا داعي الله " إلى آخره لأنه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم ... ولأن اختلاف الأغراض وتجدد الغرض مما يقتضي إعادة مثل هذا النداء كما يعيد الخطيب قوله " يا أيها الناس ")[١٥]

وبعد هذه التوطئة لهذا الحدث الجلل انتقلوا إلى الغاية من الخطاب وهي النصح والإرشاد بلزوم اتباع هذا النبي الذي وصفوه ب " داعي الله " ووجوب تصديقه والتحذير من كفره وجحوده ؛ وحيث إنهم صاروا سفراء لقومهم فمن شأنهم الخوف عليهم والشفقة بهم , ثم أغروهم بوعد مفاده أن من آمن سيغفر له ذنبه وينجوا من عذاب ربه ولا يكون مع أبيهم – أبليس – الذي ضل وأضل فطرد من رحمة الله وآيس من روح الله ؛ ثم انتقلوا إلى أسلوب آخر وهو التلويح بالعقاب والعذاب لمن يكفر بهذا الداعي إلى الله وهذا الأسلوب يسمى تداوليا " آلية المكاشفة " وهي كشف المحب لمن يحب عن حقيقة الأمر وعاقبته , وكذالك فعل السفراء السبعة حيث أوضحوا أنه مهما تكن قدرتهم حتى لو كان جنيا فلن ينجوا من عذاب الله إن استمروا على كفرهم " فليس بمعجز في الأرض " ولن يجد من يتولاه من دون مولاه أو ينصره إلا ربه , بل مثله ضل وأضل ضلالا واضحا ظاهرا.

الوسائل والأساليب البلاغية المساعدة في تحقيق الاستراتيجية التضامنية.

نذكر منها على سبيل المثال :

١ – الألفاظ الدالة على التضامن. [١٦]

يستعمل المرسل تلك الأساليب – غالبا – في إنشاء العلاقات الجديدة أو العلاقات الفاترة التي يريد أصحابها تجديدها مرة أخرى؛ ومنها على سبيل المثال ألفاظ التحية المتعارف عليها بين كل قوم أو أو جماعة أو أصحاب المهنة الواحدة ؛ فالتحية هي تضامن مبدئي يستخدمه المرسل تجاه المتلقي وكذلك السؤال عن أحواله والاطمئنان على صحته، وكما يحدث هذا في التواصل بين المتعارفين فإنه قد يكون أيضا بين من لا يعرفون بعضهم البعض ومثل ذلك (الأحاديث التي تدور في الحفلات التي يجتمع فيها الناس من لا يعرف بعضهم البعض معرفة جيدة أو أنهم يعرفون بعضهم معرفة جيده لكنهم يجتمعون بشكل متكرر جدا لدرجة أنهم لا يجدون موضوعا مهما يتحدثون فيه).[١٧]

وقد تلقى التحية لمجرد الإلقاء، كما قد تلقى كتمهيد للدخول في حديث معين، والتحية تنم عن تقدير المرسل للمتلقي وتعطيه مكانة معتبرة عنده، والسؤال عن أحوال المتلقي يدل على اهتمام المرسل به وسعيه لإقامة علاقة طيبة معه أو تحسينها وترقيتها إذا سبق وجودها، ومثاله في هذا البحث قوله تعالى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ...)[١٨]

عن سعد ابن أبي وقاص قال : لقد نزلت هذه الآية في ستة أنا وعبد الله ابن مسعود وأربعة؛ قال المشركون لرسول الله: اطردهم فإنا نستحي أن نكون تبعا لك كهؤلاء فوقع في نفس النبي ما شاء الله فأنزل الله الآية, وعن ابن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله وعنده خباب بن الأرت وصهيب وبلال وعمار فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء وهؤلاء منَّ اللهُ عليهم من بيننا لو طردت هؤلاء.[١٩]

في هذه الآيات أَمَرَ الله نبيه أن يترفق بالرعيل الأول من المؤمنين ولا يلتفت لمن أعرض عن ذكر ربه واتبع هواه وكان أمره فرطا ؛ فإن الميزان عند الله { إن أكرمكم عند الله أتقاكم }؛ ولما عرض سادةُ المشركين على النبي هذا العرض الكبير أي؛ إن هو طرد عنه هؤلاء العبيد بأن ينظروا في أمر الإسلام , فإذا به يفكر في هذا العرض , فطمع النبي في إسلامهم وهذا طمع مشروع ووجهة نظر حكيمة حيث إنه إذا أسلم هؤلاء سيدخل الإسلام معهم كل أقوامهم على ما كانت عليه أعراف القبائل العربية آنذاك من احترام سيد القبيلة وطاعته ولزوم أمره.

بينما كان لله تعالى ميزان آخر لمن يستحق التكريم فلا فرق لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح ؛ فهكذا أعلنها القرآن صريحة مدوية في اول الدعوة الإسلامية محذرا رسوله ومصطفاه أن يطرد هذه الصفوة أو يهجر تلك الزمرة (إنها عزة هذه العقيدة ، واستعلاؤها على قيم الأرض الزائفة ، وتخلصها من الاعتبارات البشرية الصغيرة ؛ لقد أمر رسول الله أن يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء ودون إطماع في شيء من قيم الأرض ولا إغراء .. كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة ، وأن يَؤوي إليه الذين يتلقونها مخلصين ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده يريدون وجهه وألا يقيم وزنا بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلي الزائفة ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة).[٢٠]

وقوله" فقل سلام عليكم " فكأنه فضل بعد فضل وتكريم تلو تكريم (إما أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله إليهم , وإما أن يكون أمرا بأن يبدأهم بالسلام إكراما لهم وتطيبا لقلوبهم ؛ وكذلك قوله " كتب ربكم على نفسه الرحمة " من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبول التوبة منهم)[٢١] وعلى الرأي الأول يكون ذلك من تكريم الله لهم حيث خصهم بسلام كما خص نوحا وإبراهيم وموسى وهارون وخديجة وعائشة ؛ وعلى الثاني فهو أيضا تكريم من النبي

بوحي من الله (فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام ... وقيل : إنه من جهة الله أي أبلغهم منا السلام).[٢٢]

ولقد استمر النبي على هذا الهدى وذلك النهج يُدنِي منه هؤلاء القوم ويقربهم ويبادرهم بالسلام بل ويجعل منهم أمراءَ للسرايا وسفراء للملوك وخلفاء له على المدينة إن خرج للغزو أو السفر وما زال على ذلك حتى موته ؛ قال القرطبي: (يستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم ؛ فإن في ذلك غضب الله ؛ أي حلول عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه).[٢٣] [٢٤]

من هنا نجد أن من أفضل وسائل التضامن وآليات التآزر هو إلقاء السلام وألفاظ التحية والتي حولتها الشريعة الإسلامية من مجرد تحية إلى عبادة وطاعة وجعلتها من حق المسلم على المسلم " إذا لقيه فليسلم عليه "ووعد سبحانه من يلقيها بثلاثين حسنة والله يضاعف لمن يشاء وجعل الله تعالى ردها فريضة.

٢ – استمالة المرسل إليه بتذكيره بأوجه الشبه و الاهتمامات والعلاقات المشتركة .

وذلك مثل: القرابة– الدين – الموطن– النشأة والمولد– زملاء الدراسة والعمل – الأصدقاء؛ كما في قوله تعالى مبينا موقف المنافقين في يوم الأحزاب حيث اختارت طائفة منهم التضامن لإقناع إخوانهم بالفرار من أرض المعركة كما في قوله سبحانه : (**وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ..**)[٢٥]

في العام الخامس من الهجرة اجتمع عشرة آلاف من المشركين من شتى قبائل الجزيرة العربية وتحزبوا حول المدينة, فجمع النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابة واستشارهم في

الخروج أو الدفاع من داخل المدينة فأشار عليه الصحابي سلمان الفارسي بحفر الخندق وكان الوقت شتاءً والجو باردًا, وطال حصار المشركين للمؤمنين وزاد الأمر مشقة والطين بلة ما توارد من أخبار عن خيانة اليهود من أسفل المدينة على الرغم من توقيع المعاهدة بالدفاع عن المدينة من أي اعتداء خارجي قال حذيفة بن اليمان: (....فجعل المنافقون يستأذنون النبي يقولون أن بيوتنا عورة وما هي بعورة فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له فيتسللون إذا استقبلنا النبي رجلا رجلا حتى أتى علي فقال ائتني بخبر القوم) (٢٦) فذكر الحديث بتمامه.

وقد خرج معه المنافقون يريدون المغنم والذكر؛ لكنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وألقى الشيطان فيها الرعب مما رأوا من كثرة الأحزاب – عشرة آلاف مشرك مقابل ثلاثة آلاف مؤمن – وزاد من هلعهم قلة الطعام وبرودة الجو وطول الحصار وخيانة اليهود؛ عندها أرادوا الهروب من ساحة المعركة والتولي يوم الزحف؛ لكن ما هي الاستراتيجية الخطابية الاقرب لاستمالة باقي الجنود ليقفوا موقفهم ويطيعوا أمرهم خاصة وأنهم سيلقون خطابهم في حضرة الرسول الكريم ؟

لقد لجأ المخاطِب – المنافقون – في استمالة المخاطَبين بالتذكير بأوجه الشبه المشتركة وتذكيرهم بأنهم أبناء وطن واحد وهم الأصلاء فيه بينما النبي ومن معهم من أهل مكة – المهاجرين – دخلاء عليهم ؛ كذلك استخدموا وسيلة أخرى وهي الاسم القديم للمدينة المنورة – يثرب – هذا الاسم الذي نُسي أو كاد أن ينسى ؛ فمنذ أن أضاء نور الوحي هذا البلد قبل خمسة أعوام من هذا المشهد تحول اسمه من " يثرب " إلى " المدينة المنورة " وقد سماها النبي طيبة , وطابا , ومهد المنافقون لتلك الصدمة مستغلين ما هم فيه من حالة الخوف والفزع المحققة ليصلوا إلى نتيجة مظنونة(أما المنافق فنجم نفاقه , والذي في قلبه شبهة أو حسيكة

لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال)[٢٧]

لقد أعلنوها بغير تورية ولا تغطية يثيرون العصبية للأرض والولاء للأوطان بديلا عن الأديان حيث قال قائلهم :{ يَٰٓأَهلَ يَثرِبَ} ولم يذكر اسم البلدة الجديد أي " المدينة " (يريدون يا أهل المدينة, فنادوهم باسم الوطن المُنبئ عن التسمية فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر, وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي).[٢٨]

لقد آتى هذا الخطاب التضامني أكله وأظهرت تلك الاستراتيجية نجاحها وأثمرت هذه الآلية التداولية ثمارها على الفور؛ فبعد أن أُلقيَ الخطاب استجاب له فاقدوا الألباب, والمعنى أنهم (اعتذروا أن بيوتهم معرضة للعدو ممكنة للسراق ؛ لأنها غير محرزة ولا محصنة فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك وإنما يريدون الفرار... والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتمحلون ليفروا عن نصرة رسول الله والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملئوهم هولاً ورعبًا)[٢٩] بهذه الآلية وتلك الاستراتيجية نجح المتكلم في الوصول إلى مبتغاه حيث اتكأ بذكاء شديد على عامل السياق والظروف الخارجية, وفهمَ جيدا نفسية المرسل إليه, واستخدم القواعد المشتركة من الأرض واللغة الخاصة والاسم العلم.

٣- ذكر خصائص المرسل إليه [٣٠]

تعد وسيلة إبداء الإعجاب بالآخر – المتلقي – من أهم الأساليب التضامنية ، فتَلَقِّي الخطاب المشبع بالإعجاب يشعر المتلقي بقيمته عند المرسل، ويترك في نفسه الأثر الطيب، وأسلوب الإعجاب في مفهومه البسيط هو إبداء العجب ولا يكون –عادة– إلا مما يثير العجب

حقيقة عند المتعجب ويخلق فيه شعورا انفعاليا داخليا سمته الاستغراب وعدم الألفة لما يتعجب منه بأن يكون هذا الأمر مجهولا أو خفيا أو غريبا.

أما إبداء العجب أو التعجب تداوليا فإنه يحمل الكثير من معاني التضامنية، فليس بالضرورة أن يكون المرسل جاهلا بسبب ما يجعله متعجبا، بل يفعل ذلك عن قصد من قبيل إظهار التضامن؛ وبغض النظر هل يستحق المتلقي للمدح أو لا يستحق فإن استعمال هذا الأسلوب يقوي أواصر القربى بين المرسل والمتلقي، وبالتالي فهو أسلوب مهم من أساليب التضامن، وهو ما يظهر أثره مباشرة على المتلقي. والنفوس البشرية تميل بطبعها إلى سماع المدح والشكر من الآخرين وتتقبله أحسن التقبل، ونجد نجاح أسلوب المدح حيث تقام به العلاقات وتقوى، لذلك تقتضي الاستراتيجية التضامنية استخدامه لأجل تحسين العلاقات بين المتواصلين ونموذج المبحث قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس...)[٣١]

في هذه الآيات يُزَكِي الله ﷻ هذه الأمة الإسلامية, ويثبت لها الخيرية على كل الأمم السالفة لها, فيثني عليها بأحسن الثناء ويمدحها بأعظم المدح؛ وهل هناك أعظم من مدحه سبحانه؟ فهي محض تزكية من الله تعالى لأنه يصطفى ما يشاء من خلقه { وربك يخلق ما يشاء ويختار } ويزكي من يشاء من عباده, وقد أثبت الله كذلك في عدة مواضع من القرآن كما في قوله سبحانه " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء.. "وأكد النبي على كلام ربه بقوله (أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله)[٣٢] , وكذلك كل ما أوتي نبينا من كرامة ومنزلة فهي تنتقل بالتبعية كرامة ومنزلة لأتباعه؛ لأن فخر كل إنسان بما ينتمي إليه وينتسب ؛ ولأن نبينا أُعطي ما لم يعط نبي قبله كما صح في الأحاديث (أعطيت ما لم يعط أحد من

الأنبياء؛ فقلنا يا رسول الله ما هو؟ قال: نصرت بالرعب و أعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد وجعل التراب لي طهورا , وجعلت أمتي خير الأمم)[٣٣].

ويرى فريق من العلماء : أن المعنى أنتم خير الناس للناس وأنفعهم للناس ؛ واستدلوا بتفسير أبي هريرة : { كنتم خير أمة } خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام [٣٤]؛ وربما يقصد ما حدث على مدار عدة قرون من الفتوحات الإسلامية في بلاد الفرس والروم حيث دخل الناس في دين الله أفواجا بعد أن كانوا في ظلمات الأوثان والصلبان وعبادة الكواكب والنيران .

هذه الخيرية ليست لأن المسلمين أكثر عددا وأكبر بلادا وعمرانا؛ إنما لأنهم ما يزال فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى يوم القيامة حتى قتال المسيح الدجال.

وعلى أي حال فالذي يعني هذا المبحث هو الأسلوب القرآني العظيم من ذكر خصائص المرسل إليه والرفع من شأنه ليثبت على ما هو عليه من صلاح الحال والأعمال فهي استراتيجية تضامنية استخدم فيها هذا الأسلوب, والذي لا شك أن أي إنسان يحب من يثني عليه ويذكره بأخير أعماله وأفضل أوصافه.

أما معنى { كنتم } على الماضي قال القرطبي: (هي " كان " التامة ؛ والمعنى خلقتم ووجدتم خير أمة " , خير أمة " حال ؛ وقيل " كان " زائدة والمعنى " أنتم خير أمة " وأنشد سيبوية " وجيران لنا كانوا كراما)[٣٥] ومثال ذلك في القرآن كثير كقوله { كيف نكلم من كان في المهد } وقوله { إنه كان غفورا رحيما }, وقال صاحب الكشاف: (كأنه قيل : وُجدتم خير أمة, وقيل : كنتم في علم الله خير أمة, وقيل : كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به)[٣٦].

٤- إظهار التواضع (نكران الذات, أو تأنيب الذات).

ومن الأساليب التي تخدم الاستراتيجية التضامنية أيضا ما يظهر في كلام المرسل من تواضع للمتلقي ونكران لذاته أمامه (فيتحدث المرسل عن نفسه وكأنه يتحدث عن شخص آخر، وغدت هذه الآلية من علامات الاستراتيجية التضامنية خصوصا عند من يمتلك السلطة، ويكثر استخدام هذه الآلية في الخطاب الإعلامي أو المرئي)[٣٧] بيد أنه لا يجب ان يزيد هذا الفعل عن المعقول يقول الجاحظ (ويكون في التهمة لنفسه معتدلا, وفي حسن الظن بها مقتصدا, فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها, فأودعها ذلة المظلومين, وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها آمنها فأودعها تهاون الآمنين).[٣٨] ؛ مثاله قوله سبحانه **(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**)[٣٩]

في هذه الآيات ثلاثة مواقف أو قدوات للمرسِل المتواضع المنكر لذاته ؛ أولهم السيدة زينب بنت جحش حيث أظهرت تواضعا لله ورسوله وطاعة فيما يخالف هوى النفس وهدمت بمعول إيمانها صرحا من صروح الجاهلية وأقامت على انقاضه بستانا مثمرا من الإيمان والطاعة وحدائق من زهور التواضع وإنكار الذات والانقياد لأمر الله ورسوله؛ حيث أن النبي ذهب ليخطبها فظنت في أول الأمر أنه يخطبها لنفسه فهي بنت عمته صفية ومثلَهُ قريشية ؛ لكن المفاجأة أو" الصدمة " أنه خطبها لمولاه زيد بن حارثه ؛ ولما كانت هي من أشراف قريش وهوعبد مملوك قريبا حينها على الفور أذعنت وقبلت أمر الله ورسوله في تواضع غير مسبوق وهدم لما كانت عليه أعراف الجاهلية وتقاليدها من ازدراء العبيد والموالي والإيماء (الواقع أن

رسول الله لم يبال بإباء زينب الاقتران بزيد ورغبتها عنه... ولكنه أراد تنفيذ أمر الله في محو عادة جاهلية رديئة درج عليها العرب آنذاك ؛ وهي إعطاء الدَّعِي جميع حقوق الابن , وإجراء جميع الأحكام المعتبرة للابن عليه وله حق الميراث وحرمة النسب ... وليس أحد أجدر من النبي يختصه الله بهذا التكليف)[٤٠] ومع مرور الأيام والليالي لم يحدث التوافق بينهما وكثرت شكوى زيد منها.

أما المرسل الثاني هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؛ حيث أخبره الله – عز وجل – أن زيدا سيطلق زوجته زينب, وأخبره – كذلك – أنها ستكون زوجة له , فلما جاء زيد مرة يشكو منها أظهر النبي تواضعا ورحمة وإنكارا لذاته ورد عليه بقوله { اتق الله } أي اتق الله في أهل بيتك واصبر, أواتق الله ولا تقل عنها إلا خيرا (قال رسول الله على جهة الأدب والوصية " اتق الله " في قولك وأمسك عليك زوجك وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها)[٤١] وهذا من شدة تواضعه أنه أخفى في نفسه ما أظهر الله عليه من قبل ذلك فعن أنس قال: (نزلَت هذهِ الآيةُ "وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ..." في شأنِ زينبَ بنتِ جحشٍ جاءَ زيدٌ يشكو فَهَمَّ بطلاقِها فاستأمرَ النَّبيَّ فقالَ: أمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ)[٤٢] , والمراد بقوله تعالى { وتخشى الناس } أي كان يخشى هذا التغيير العظيم في معتقدات العرب التي عاشوا عليها دهورا في شأن التَبنِّي وكيف سيقال أن رسول الله تزوج مطلقة ابنه؛ ويخشى كذلك من طعن المنافقين المتربصين بكل صغيرة وكبيرة (إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نَهَى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه ... وقال العلماء: ليس هذا من النبي خطيئة ... وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتن الناس)[٤٣] وهنا سؤال قد يفكر فيه قارئ القرآن فكيف كان سيجيب رسول الله عن هذا الموقف بالغ الإحراج وقد عُرِفَ عنه تواضعه الشديد وحياؤه

السامي؛ يجيبنا في ذلك صاحب الكشاف بقوله: (فإن قلت: فماذا أراد الله منه أن يقول؟... قلت : كأن الذي أراد منه – عز وجل – أن يصمت عند ذلك, أو يقول له " أنت أعلم بشأنك " حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته ؛ لأن الله يريد من الأنبياء تساوي الظاهر والباطن والتصلب في الأمور والتجاوب في الأحوال والاستمرار على طريقة مستتبة).[٤٤]

أما عن هذا العتاب الرباني لقوله { أمسك عليك زوجك } لأنه تأخر في بيان الأمر وتركه لقَدرِ الله ومشيئته لأنه يعلم أنه كائن لا محالة في ذلك (تقول ذلك وأنت تعلم أن الطلاق أمر لا بد منه ؛ لِمَا ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك لتكون أسوة حسنة ... وإنما غلبك في ذلك الحياء وخشية أن يقولوا " تزوج محمد مطلقة متبناه " ... فكان عليك أن تمضي في الأمر من أول وهلة تعجيلا بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه)[٤٥] , وقوله سبحانه { زوجناكها } ليتحقق بذلك قوله سبحانه من السورة نفسها { لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة } فكأن الله تعالى أجمل القول هناك وفصله هنا بنموذجٍ عمليٍ وتطبيقٍ واقعي على خير نبي (لتكون أسوة في إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المتبنى بعد طلاقها, ولا يكون على المؤمنين إثم وذنب في أن يتزوجوا من زوجات من كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن إذا قضوا منهن حاجتهم).[٤٦]

والنموذج الثالث من تواضه المرسل هو زيد بن حارثة الذي تربى في مدرسة النبوة فتعلم منه إنكار الذات والتواضع فرد الجميل بجميل؛ فكأن النبي أراد ان يختبر ذلك منه فأرسله إلى زينب بعد انقضاء عدتها ليخطبها له؛ فعن أنس بن مالك قال : (لمَّا انقضتْ عدة زينب قال رسول الله لزيد " اذهب فاذكرها عليَّ " ...)[٤٧]... وذكرالحديث.

وبهذا يكون المرسل هنا قد ضرب لنا أروع الأمثلة في إنكار الذات وحسن التواضع والأدب مع المرسل إليه من أجل التضامن معه والتآزر وإبقاء للمودة والمحبة وحفاظا على عرى الإيمان وتوثيقا لقواعد الإسلام وإبطالا لعادات الجاهلية وعودة للفطرة الإنسانية.

٥- إظهار الرحمة والشفقة والخوف بالمرسل إليه.

من أهم الأساليب التضامنية أن يظهر المرسل من خلال كلماته وأفعاله أنه رحيم رؤوف بالمرسل إليه خائف عليه مما يضره مشفق عليه مما قد يؤذيه, بل لا بد أن يتجنب الغلظة والفظاظة.

إن لفظة "الرحمة" التي تواردت كثيرا في القرآن، وتعالقت مع بعثة الرسول- صلى الله عليه وسلم –هي أشمل بكثير مما اصطلح عليه في الدراسات اللسانية باستراتيجية التضامن، إذ لم يكن الرسول الكريم متضامنا فحسب بل كان رؤوفا رحيما, ولأن رحمته غير مصطنعة بل هي فطرة فطره الله عليها فإن الله لما أمره بتبليغ الرسالة ألصق به صفة الرحمة خاصة , وشاهد هذا المبحث قوله تعالى:

(إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩))[٤٨]

لمَّا أَذِنَ الله –عز وجل – لنبيه بالهجرة إلى يثرب قام النبيُ يوصي المؤمنينَ معه بالهجرة إليها من غير إلزام أو وجوب ؛ ولما مر على ذلك عامان خرج النبي إلى غزوة بدر وخرج(أُناسٌ من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله فيأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله " ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم "...)[٤٩] فلما نزلت أرسل بها رسول الله للذين لم يهاجروا.

وهذه الآية تحمل وعيدا شديدا يبدأ بحرف التوكيد { إن } وبالفعل المضارع { تتوفاهم } الذي يفيد استمرار الوعيد لكل من كان هذا حاله , ومن شدة وقعها وألمها أنها تحدث عند خروج الروح حيث تنزع الملائكة الموكلة بذلك أرواح هؤلاء الذين لم يهاجروا في شدة وقسوة تزيد مع ألم الخروج ألما آخر معنويا توبيخيا وذلك بسؤالهم { فيم كنتم؟ } أي لماذا لم تهاجروا وأقمتم في ديار المشركين؟ , ولأن إجابتهم كاذبة { كنا مستضعفين } فهي لا تنفعهم حيث هاجر من كان على مثل حالهم, بل هاجر من هو أضعف منهم كبعض النساء والعبيد والعجائز ؛ إذا فهم كاذبون في دعواهم مخطئون في عذرهم بقولهم{ كنا مستضعفين في الأرض} لذلك وبختهم الملائكة باستفهام تقريري لا يستطيعون أن يحيدوا عن كون الإجابة " نعم كانت أرض الله واسعة ".

ومن حكمة الله تعالى المحاطة برحمته أنه سبحانه استثنى من هذا الوعيد ثلاثة أصناف وهم المستضعفين من الرجال, والنساء, والولدان؛ ذلك لأنهم مستضعفين على الحقيقة؛ فالرجل الهرم لا يستطيع الهجرة لعجزه , والنساء والولدان الصغار لكونهم تحت ولاية غيرهم من الرجال المشركين فهؤلاء الثلاثة (لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه { ولا يهتدون سبيلا } .. و{عسى } ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه ؛ وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته ولا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي بل يكون مقصرا فلا يستحق ذلك الثواب)[٥٠].

إنه وعيد شديد وتهديد يلحظ في لفظة{ عسى } التي تفيد الترجي وكان من الممكن أن يحسم الأمر فيقال في حق الضعفاء " فأولئك سيغفر الله لهم " لكن المقصوده من فحوى الخطاب ليس الضعفاء إنما الأقوياء الذين لم يهاجروا مع القدرة؛ فإذا قيل هذا التهديد في حق العجزة والنساء {عسى الله أن يعفو عنه } فماذا يقال في حق القادر المستطيع الذي تخلف عن الهجرة (فإن قلت لم قيل { عسى } بكلمة الإطماع ؟ ؛ قلت: للدلالة على ان ترك الهجرة أمر

مضيق لا توسعة فيه حتى إن المضطرَ البيِّنَ الاضطرار من حقه أن يقول عسى الله أن يعفو عني ؛ فكيف بغيره؟)[٥١] وقريبا من كلام الزمخشري قال الطاهر بن عاشور أن هذا العفو في تلك الحالة عفو عزيز المنال (فمثل حال العفو عنهم بحال من لا يقطع بحصول العفو عنه، ولا مقصود من ذلك تضييق تحقق عذرهم، لئلا يتساهلوا في شروطه اعتمادا على عفو الله، فإن عذر الله لهم باستضعافهم رخصة وتوسعة من الله تعالى، لأن البقاء على إظهار الشرك أمر عظيم، وكان الواجب العزيمة أن يكلفوا بإعلان الإيمان بين ظهراني المشركين ولو جلب لهم التعذيب والهلاك، كما فعلت سمية أم عمار بن ياسر)[٥٢].

فلما نزلت هذه الآية بعث بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى مسلمي مكة فقال ضمرة بن جندب لبنيه: إني لغنيٌ , وإني لذو حيلةٍ احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجهين إلى المدينة – وكان شيخا هرما – فلما وصل إلى التنعيم أدركه الموتُ فأخذ يصفق بيمينه على شماله ثم قال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك ثم توفاه الله , فوصل بنوه إلى رسول الله وأخبروه فقال الصحابة : لو توفى بالمدينة لكان أتم أجرا, وقال المشركون وهم يضحكون : ما أدرك هذا ما طلب.

هنا يتنزل القرآن من الرحيم الرحمن يقص ما حدث على رسوله مستهلا خطابه بالبشرى لمن لم يهاجر يحثه على الهجرة ويبين ما فيها من فضل معلوم ورزق مقسوم حتى لا يخشى الفقر أو الحاجة بأنه سيجد{ مراغما كثيرا وسعة } أي: مذهبا ومكانا في الأرض وسعة في الرزق (كلام مستأنف لبيان مسوق لبيان حال المهاجرين في سبيل الله ؛ المُرَاغَم : المذهب

والحصن فهو اسم مكان وعبر به للإشعار بأن المهاجر يرغم أنف قومه أي يذلهم ؛ والرغم : الذل والهوان)[٥٣].

ولا مناص من القول أن النفس البشرية مجبولة على الخوف والحرص والشح وحب التوطن في أرض واحدة, ولذا فنَّد القرآن هذه المخاوف وردها (إن المنهج الرباني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة وهي تواجه مخاطر الهجرة في مثل تلك الظروف ... وهو يعالج هذه النفس في وضوح وفصاحة فلا يكتم عنها شيئا من المخاوف ولا يداري عنها شيئا من الأخطار – بما في ذلك خطر الموت – ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله... يجد في الأرض فسحة ومنطلقا فلا تضيق به الأرض، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة , وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحها يخيل إليها أن وسائل الحياة والرزق مرهونة بأرض ومقيدة بظروف ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلا , وهذا التصور الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة هو الذي يجعل النفوس تقبل الذل والضيم)[٥٤].

وبناءً على ذلك يحكم الخطاب القرآني الرحيم بالقول الفصل في هذه الواقعة ومثيلاتها في كل من عقد النية على فعل خير أو معروف بشرط أن يخلص نيته لله ولرسوله بلا رياء ولا سمعة أي " فقد وقع أجره على الله " وهوسبحانه رحيم رؤوف ودود بعباده يقبل القليل ويجازي بالكثير حتى أنه من رحمته يجازي على النية الصادقة إذا حيل بينها وبين صاحبها عن العمل والتنفيذ(فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمان الله تعالى , وذلك لأنه نوى وجزم وحصل منه ابتداء وشروع في العمل فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملا ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها ولهذا ختم الآية

بهذين الاسمين الكريمين " غفورا رحيما)[٥٥] لقد استحق الأجر قبل العمل لقد باع نفسه وأرضه ومستقره واشترى أرضا عرضها السموات والأرض أعدت لمن أطاع الله ورسوله لا ينفد خيرها ولا يتحول هو عنها بل هو خالد فيها أبدًا.

يبين لنا هذا الخطاب القرآني الرحيم الذي رد على المؤمنين في المدينة حيث ظنوا أنه لا يغفر له لأنه لم يكمل هجرته, وهو وردٌ – كذلك – على المشركين من أهل مكة الذين سخروا منه لأنه مات في الطريق وترك دين الآباء والأجداد لكنها الرحمة التي سبقت الغضب بهذا المخاطب وكل من سار على دربه أو فعل مثل فعله.

نتائج البحث

١- توصل البحث إلى تعدد وتنوع الآليات البلاغية وثرائها وكثرتها في آيات السيرة النبوية الشريفة قد تنوعت بين أمر ونهي وتحذير،وحض، ونداء, حيث تقوم الدراسة التداولية على دراسة قصد المتكلم أو المعانى التي يرمى إليها وكيفية تحليل الخطاب حتى يفهم المتلقي المعنى المقصود , وتعتمد – كذلك – دراسة الأفعال الكلامية التي تخللت عملية الخطاب من الرجاء , والالتماس, والشكر، والنصح، والوعد , وغير ذلك من الأساليب البلاغية

٢- لا حظ الباحث أن هناك بعض المواضيع القرآنية من خلال آيات السيرة النبوية يطرد فيها استخدام استراتيجية بعينها، فمواضيع مثل الترغيب، والدعوة إلى الله، وبناء الأخلاق، تظهر فيها الاستراتيجية التضامنية أكثر بينما تظهر الاستراتيجية التوجيهية في مواضيع أخرى مثل الترهيب، أو إقرار العقائد والأحكام الشرعية المختلفة، وعموما فإن طبيعة بعض المواضيع تفرض استخدام استراتيجية بعينها , ولذلك قد يتنازل المخاطب عن استراتيجية ما – طواعية – ويختار غيرها بما يناسب الهدف والغاية من خطابه.

٣- يرى الباحث أن من أكثر الاستراتيجيات تداولا في آيات السيرة النبوية هي الاستراتيجية التضامنية وذلك لما تحمله من آليات لغوية ووسائل بلاغية عميقة تخاطب المشاعر وتؤثر في المتلقي.

٤- توصلت الدراسة من خلال تحليل آيات السيرة الصادرة من الرسول لمخالفيه أنه اختار استراتيجيات أشمل لما نظر المعاصرون له، فقد جمع بين التضامن والتوجيه والتلميح والحُجة في سياق واحد ، فلم يكن حِجاجه للانتصار على مخاطبيه؛ بل كان لغاية عظمى وهي الانتصار لدين الله الذي بعث من أجل تبليغه.

الهوامش

(١) الممتحنة : (١)

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – تح : أحمد البردوني , إبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية – القاهرة – ط الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م – ج٩ – ص ٦٥٣١.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم – دار التقوى للتراث– ط الثالثة ٢٠٠٢ م – ج٤ – ص ٣٩٧.

(٤) القرطبي: تفسير القرآن – مرجع سابق – ج٤ – ص ٦٥٣٣ .

(٥) الضحى: (١ – ٥), وينظر كذلك الآيات: الأحزاب: ٢٨ – ٣٠.

(٦) البخاري:(٤٩٣٨), ومسلم : (١٧٩٧).

(٧) والمراد بالضحى : وقت الضحى , وسجى الليل : أظلم وسكن , وقيل " ليلة ساجية " ساكنة الريح , " ما ودعك "ومعناه ما قطعك قطع المودع , والتوديع مبالغة في الودع لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك

(٨) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – دار العقيدة– تح: جمال نصر– ط الأولى– ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م – ج ٢ – ص ١٤٨٠.

(٩) الزمخشري: الكشاف – مرجع سابق – ج ٤ – ص٥٩٨.

(١٠) ابن عاشور(محمد الطاهر بن عاشور التونسي ت ١٩٧٣ م): تفسير التحرير والتنوير– الدار التونسية للنشر – ط الأولى ١٩٨٤ – ج ٢٠ ص ٣٩٨– بتصرف يسير .

(١١) الأحقاف : (٢٩ – ٣١)

(١٢) كما أخبره رب العالمين بقوله سبحانه" تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا"

(١٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – مرجع سابق – ج ٩ – ص ٦٠٣٦

(١٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم – مرجع سابق – ج٤ – ص ١٩٥.

(١٥) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير – مرجع سابق – ج ٢٦ – ص٦٠.

(١٦) مثل: إفشاءالسلام وإرساء الأمان وإيصال الاطمئنان بالمرسل إليه, وألفاظ التحية – السؤال العام – الدعاء له – ألفاظ التهنئة – أساليب الترحيب – تحذيره من خطر– دعوته إلى خير .

(١٧) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة – دار عالم المعرفة – ط الأولى ١٩٧٠ – ص : ١٧٢.

(١٨) الأنعام : (٥٤).

(١٩) قال السيوطي: رواه أحمد والطبراني وابن أبي حاتم , ورواه ابن حبان والحاكم؛ ينظر أسباب النزول للسيوطي – مرجع سابق – ص ٥٢.

(٢٠) سيد قطب(سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي – ت ١٩٦٦ م): في ظلال القرآن– دار الشروق– تح: علي بن نايف الشحود– ط الثلاثون ٢٠١١ – ج ٢– ص : ١٠٩٩.

(٢١) الزمخشري: الكشاف – مرجع سابق– ج٢ – ص٢٨.

(٢٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن – مرجع سابق – ج٤ – ص٢٤٣٢ .

(٢٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن – مرجع سابق – ج٤ – ص٢٤٣٢

(٢٤) يدل على صحة قول القرطبي – رحمه الله – ما روي في سبب نزول قوله تعالى من سورة التوبة (لا تعتذروا قد كفرتم ...) الآية ؛ فقد نزلت في جماعة من المنافقين سخروا من قراء المسلمين .

(٢٥) الأحزاب : (١٣)

(٢٦) السيوطي : أسباب نزول القرآن – مرجع سابق – ص ٥٠٤ , وقال: أخرجه البيهقي في الدلائل.

(٢٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم – مرجع سابق – ج٣ – ٥٥٦.

(٢٨) السعدي: تيسير الكريم الرحمن – مرجع سابق –ج٢ – ص١٠٥٧.

(٢٩) الزمخشري: الكشاف – مرجع سابق – ج٣ – ص٤٨٦ , ٤٨٧ .

(٣٠) ويكون ذلك بمثل إبداء الإعجاب بصفاته بأساليب المدح والثناء والتأييد والتشجيع .

(٣١) آل عمران :(١١٠)

(٣٢) رواه الترمذي وحسنه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده , ورواه أحمد وابن ماجة والحاكم.

(٣٣) رواه أحمد في مسنده عن علي (٧٦٣), وفي بعض طرقه " أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي .. الحديث ".

(٣٤)رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٣٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن – مرجع سابق – ج٢ – ص ١٤١٢.

(٣٦) الزمخشري: الكشاف – مرجع سابق – ج١ – ص ٣٤٧.

(٣٧) رواه ابن جرير عن قتادة.

(٣٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم – مرجع سابق – ج١ – ص٤٥٦.

(٣٩) الشهري: إستراتيجيات الخطاب – مرجع سابق – ص ٣٠٤.

(٤٠) الجاحظ : البيان والتبيين– مرجع سابق – ج١ – ص ٩٣.

(٤١) الأحزاب :(٣٨)

(٤٢) محي الدين الدرويش : إعراب القرآن الكريم وبيانه – دار ابن كثير للطباعة دمشق – ط السادسة ١٤١٩ هـ /١٩٩٩م – ج٦ – ص ١٧٧.

(٤٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن – مرجع سابق – ج ٨ ص ٥٢٧٣.

(٤٤) رواه الترمذي في صحيحه : (٣٢١٢)

(٤٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن – مرجع سابق ج ٨ – ص ٥٢٧٣.

(٤٦) الزمخشري: الكشاف – مرجع سابق – ج ٣ – ص ٤٩٩.

(٤٧) محي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم – مرجع سابق – ج٦ – ١٧٨.

(٤٨) التفسير الميسر – مرجع سابق – ص٤٢٣.

(٤٩) وذكر الحديث بتمامه رواه مسلم (١٤٢٨) , وأحمد والنسائي.

(٥٠) النساء :(٩٩ – ١٠٠)

(٥١) رواه البخاري عن ابن عباس :(٧٠٨٥).

(٥٢) السعدي: تفسير الكريم الرحمن – مرجع سابق – ج١ – ص٢٩٠.

(٥٣) الزمخشري: الكشاف – مرجع سابق – ج١ – ص ٥١٨ .

(٥٤) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير– مرجع سابق – ج٥ – ص١٠١٤.

(٥٥) محي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم – مرجع سابق – ج٥ –ص٩٦.

(٥٦) سيد قطب: في ظلال القرآن – مرجع سابق – ج٢ – ص٧٤٥ .

(٥٧) السعدي: تفسير الكريم المنان – مرجع سابق – ج ١ – ص٢٩١.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أبو بكر الجزائري (جابر بن موسى بن عبد القادر – ت ١٤٣٩ هـ) : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير, وبهامشه " نهر الخير على أيسر التفاسير " – مكتبة العلوم والحكم – ط الثالثة ١٤١٠/ ١٩٩٠.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر – ت ٢٥٥ هـ): البيان والتبيين – مكتبة الخانجي – القاهرة تحقيق: عبد السلام هارون – ط الخامسة – ١٤٠٥هـ .
- الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل – خرج أحاديثه : الحافظ بن حجر العسقلاني (الكاف الضاف من تخريخ أحاديث الكشاف – دار الحديث القاهرة – د. ط ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م .
- السعدي (أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصرالتميمي – ت ١٣٧٦هـ) : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – دار العقيدة– تح: جمال نصر– ط الأولى– ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .
- السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي – ت ٦٢٦ هـ) : مفتاح العلوم – ضبط وتعليق : نعيم زرزور– دار الكتب العلمية بيروت – ط الأولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ابن سنان الخفاجي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الحلبي – ت ٤٦٦ هـ): سر الفصاحة – دار الكتب العلمية – بيروت – ط الأولى ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م .
- السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول – تح وطباعة : المركز العلمي بدار ابن الجوزي – القاهرة – د ط ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م .
- ابن عاشور(محمد الطاهر بن عاشور التونسي ت ١٩٧٣ م): تفسير التحرير والتنوير– الدار التونسية للنشر – ط الأولى ١٩٨٤م .

- عبد القاهر الجرجاني(أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن محمد بن الجرجاني – ت ٤٧١ هـ) : أسرار البلاغة – قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر – دار المدني بجده – ط الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م.

  – دلائل الإعجاز – قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر – مكتبة الخانجي القاهرة – ط الخامسة ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م .
- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي – ت ٣٩٥ هـ): معجم مقاييس اللغة –دار الفكر – تح: عبد السلام هارون ط الأولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .
- الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الكوفي – ت ٢١٥هـ) : معاني القرآن – تعليق : د : صلاح عبد العزيز , د : محمد الطيب – دار السلام للطباعة والنشر – ط الأولى ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م .
- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري شمس الدين – ت٦٧١هـ) : الجامع لأحكام القرآن – تح: أحمد البردوني , إبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية – القاهرة – ط الثانية ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م.
- القزويني (جلال الدين الخطيب محمد بن عبد الرحمن بن عمر الشافعي – ت ٧٣٩ هـ) : الإيضاح في علوم البلاغة – شرح وتحقيق : د : محمد عبد المنعم خفاجي – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض – ط الأولى ١٤٢٦هـ .
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم – دار التقوى للتراث – القاهرة – ط الثالثة – ٢٠٠٢م .
- محي الدين الدرويش : إعراب القرآن الكريم وبيانه – دار ابن كثير للطباعة – دمشق – ط السادسة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .
- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية – مكتبة الشروق الدولية. ط الخامسة ١٤٣٢ هـ / يناير ٢٠١١م .
- المنتخب في تفسير القرآن الكريم (لجنة القرآن والسنة) – وزارة الأوقاف المصرية – ط الحادية عشرة – د ت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥م .
- عبد الهادي بن ظافر الشهري– استراتيجيات الخطاب – دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت – ط الأولى ٢٠٠٤ .

- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري) : السيرة النبوية " سيرة ابن هشام " – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر – ط الثانية ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .